

ISSN 0189 - 3610

AL-FIKR

14

ANNUAL JOURNAL OF THE DEPARTMENT OF ARABIC AND ISLAMIC STUDIES,
UNIVERSITY OF IBADAN, NIGERIA.

VOL. 21 NO.

JUNE 2008



مجلة سنوية يصدرها قسم الدراسات
العربية والإسلامية بجامعة إبادان - نيجيريا

al-fikr

EDITOR

PROF. S.H.A. MALIK

ASSOCIATE EDITORS

DR. M.O. ABDUL-RAHMAN

DR. K.K. OLOSO

DR. S.A. SHITTU

DR. L.O. ABBAS

BUSINESS MANAGER

DR. S.A. SHITTU

EDITORIAL CONSULTANTS

PROFESSOR R.D. ABUBAKRE

UNIVERSITY OF ILORIN, ILORIN, NIGERIA.

PROFESSOR Z.I. OSENI

UNIVERSITY OF ILORIN, ILORIN, NIGERIA.

PROFESSOR M.A. BIDMUS

UNIVERSITY OF LAGOS, LAGOS, NIGERIA.

PROFESSOR K.A. BALOGUN

OGUN STATE UNIVERSITY, AGO-IWOYE, NIGERIA.

من آثار القيم الفكرية فى نقد الأدب العربى النيجيرى

بقلم

خليل الله محمد عثمان بودوفو

Khalil Mohammed Usman Gbodofu

المقدمة:

سلك أهل نقداً لأدب العربى فى نيجيريا مسلك النقاد العرب فى تقسيم الآراء النقدية إلى المقاييس والمناهج المختلفة، إذ شاعت فى مؤلفاتهم اصطلاحات نقد الأدب العربى القديم والحديث منها الفكرة، والعاطفة، والخيال، والأسلوب ونحو ذلك، فالناقد لا يستغنى من هذه الاصطلاحات ما دام يمارس الدراسات النقدية فى أعماله الأدبية، ولعل السبب فى ذلك هو أن النقد - من حيث طبيعته - يتناول جميع المعلومات العلمية والفنية والاجتماعية والسياسية. و أما الذى أدى إلى نشأة المقاييس فهو اختلاف القدماء حول مكانة اللفظ والمعنى فى الأدب العربى، وكان النقاد يتوارثون هذا الاختلاف جيلاً بعد جيل، فأنصار اللفظ يجعلون اللفظ وحده هدف البليغ ويدعون الدارسين إلى العناية به وحده، ويسندون رئاستهم إلى إمام الأدباء أبى عثمان الجاحظ. وأما أنصار المعنى فإنهم يجعلون له المكانة الأولى فى النص الأدبى ويقولون أن رئيسهم فى هذا هو إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجانى، وفى الحقيقة ليست للجاحظ ناقة فى اللفظ وحده، وليس لعبد القاهر الجرجانى جمل فى المعنى منفرداً، وإنما يؤمن كلاهما بأن اللفظ والمعنى ركنان فى الأدب وبهما يؤثر فى القلب تأثيراً بليغاً، ولعل هذه الظاهرة مما أدى الأدباء والنقاد من أيام ابن رشيق القيروانى إلى البحث عن علاقة بين الألفاظ والمعانى وإلى تقسيم هذه العلاقات أخيراً إلى مقاييس ومناهج مختلفة. وأما هذه الورقة فإنها ستتركز على بعض مقاييس الفكرة الواردة فى نظر نقاد الأدب العربى النيجيرى ولتحقيق هذا الهدف يقترح الباحث أن يكون النقاط الآتية مباحث للورقة

المبحث الأول: حوار حول الفكرة

المبحث الثانى: التناقض

المبحث الثالث: الصدق والكذب
المبحث الرابع: الوضوح والغموض
المبحث الأول: حوار حول الفكرة:

يذهب الباحثون إلى أن الفكرة هي الحقيقة أو الصواب الذي يعد أساسيا في جميع الآثار الأدبية القيمة^١، وكل فن من فنون الأدب لابد من حاجة إلى هذه الفكرة، إذ غايته هي أن تأخذ بأيدي القارئ إلى معارف وفيرة صحيحة، وأن يؤديها بعبارة دقيقة واضحة سهلة الفهم وبهذه الفكرة يهتدى النقاد إلى صواب في التاريخ والفلسفة والفلك ونحو ذلك من العلوم المختلفة. ومن أبرز عناصرها، الصدق والكذب والتناقض، والوضوح والغموض والإحالة وغيرها.

المبحث الثاني: التناقض:
هو أن يعرض الأديب أو الكاتب معني يظهر الإيمان به والركون إليه، ثم يأتي بمعني آخر يخالفه في الروح والاتجاه، وقد يثبت للشيء وصفا، ثم يعود فيصفه بصد وصفه الأول.
والتناقض عندي ينقسم إلى قسمين: المقبول، وغير المقبول، وأما المقبول فهو أن تجد التناقض بين القولين، كما جاء في قول امرئ القيس في القصيدتين الآتيتين:
أ- لنا غنم نسوقها غرار ** كأن قرون جلتها العصي

فتملاً بيتنا أظنا وسمنا** وحسبك من غنى سبع وري^٢
ب- ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة ** كفاني ولم أطلب قليلا من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثّل س** وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالي^٣

بالغ بعض النقاد في تعيب امرئ القيس في قوليه المختلفين وقالوا كيف يعلن لنا القناعة في البيتين الأولين ويجعل الشبع والري غاية يتحقق بهما الإنسان في حياته الدنيوية، ثم يأتي في البيتين الآخرين ويحدثنا عن مطامعه، وعلو نفسه، وأنه لا يسعى للمعيشة الدنيوية، ولا يكتفي بالقليل من المال، ولكنه يسعى للمجد الخالد ذي الدعائم الثابتة المستقرة، وأنه جدير أن يظفر من أماله بما يريد^٤ ولهذا أخذوا عليه، وذهبوا إلى أن إنتاجه الشعري يناقض بعضه بعضا.

وأما في نظر بعض النقاد المحققين أمثال قدامة بن جعفر والدكتور أحمد بدوي لا تناقض بين المعنيين تناقضا يمنع اجتماعهما في بوتقة واحدة، ذلك لأن الشاعر ليس بلازم عليه أن يكون متحد الآراء والخواطر في كل إنتاجه الفني. فلقد تتغير أفكار الأديب حيناً بعد حين، وتتطور نظرياته الفنية حسب البيئات الاجتماعية، والاقتصادية، والعلمية. إذ البيئة مما يؤثر في الإنسان.

وأما التناقض غير المقبول، فهو المخالفة التي تأتي من الشاعر أو الأديب في البيت الواحد أو البيتين، كالذي جري في شعر أبي نواس في الخمر قال:

كأن بقايا ما علا من حبابها ** تفارق شيب في سواد عذار
تردت به ثم انفري عن أديمها ** تفري ليل عن بياض نهار^٦
لقد عاب قدامة أبا نواس في هذين البيتين وقال: تري الشاعر في البيت الأول يجعل الحباب أبيض كالشيب، ويجعل الخمر سواده كالعذار، ثم يعود في البيت الثاني، فيجعل الحباب كالليل، ينشق عن حمر بياض كالنهار، وذلك تناقض في التشبيه ظاهر^٧

ولعل نقادنا النيجيريين لا يnehجون إلا على هذا المنوال، وكانوا يحتجون أحيانا لبعض النصوص ويبررونها من التناقض غير المقبول، ولقد اشتدت الخصومات الحسية والمعنوية بينهم حول تناقضية كلمة الأسقم الواردة في الصلاة المعروفة بجوهرة الكمال وهي:

اللهم صل وسلم على عين الرحمة الربانية والياقوتة
المتحركة الحائطة بمركز الفهوم والمعاني، ونور
الأكوان المتكونة الأدمي صاحب الحق الرباني،
البرق الأسطع بمزون الأرباح المائلة لكل متعرض
من البحور والأواني ونورك اللامع الذي ملأت به
كونك الحائط بأمكنة المكاني، اللهم صل وسلم على
عين الحق التي تتجلى منها عروش الحقائق عين
المعارف الأقوم صراطك التام الأسقم. اللهم صل
وسلم على طلعة الحق بالحق الكنز الأعظم إفاضتك
منك إليك إحاطة النور المطلسم، صلي الله عليه
وعلى آله صلاة تعرفنا بها إياه^٨

ولكن البروفيسور المرحوم علي نائبي سويد اعتني بهذه الصلاة اعتناء كبيرا ودرسها دراسة صرفية مفصلة وذهب إلى أنه لا تناقض بين معاني كلماتها وقال:

أن السياق الكلامي الذي وردت فيه تلك الكلمة لا يؤيد القول بأنها تدل على معني يناقض معاني كلمات ذكرت قبلها وبعدها، لأن ذلك يؤدي إلى جمع النقيضين في تلك الصلاة التي تحتفل من أولها إلى آخرها بالإشارة إلى صفات عظيمة نسبت إلى الرسول العظيم^٩.

ولا أشك أن البروفيسور علي نائبي سويد من أولئك النقاد الذين يؤمنون إيمانا جازما بأنه لا يمكن لأي دارس أيا كان أن يقوم عملا أدبيا أنتجه الإنسان تقويما عادلا إلا إذا أقام ذلك التقويم على أرض صلبة من المعرفة بالحقائق العلمية التي تحيط بإنتاج ذلك العمل. سواء منها ما يتعلق بالمنتج من حيث هو كائن حي ينتمي إلى الجنس البشري الذي يرتد بتسلسله إلى الأصل الحيواني، وما يتعلق بالبيئة الطبيعية والاجتماعية التي تحيط بذلك العمل وإنتاجه^{١٠}.

وللبروفيسور عبد الرزاق ديريمي أبو بكر آراء نقدية كثيرة في التناقض، انظر إلى رأيه بالنسبة إلى ما في كتاب أزهار الربا في أخبار بلاد يوربا حول عدد قبيلتي اليوربا والهوسا في نيجيريا يقول:

لعل المؤلف يمعن النظر في هذا كله، وخصوصا في التناقض عند الصفحة الخامسة عشر إذ قال: إن شعب يوربا أكبر الشعوب حجما.. ويبلغ عددهم ٥٠٩،٣٦٠،١١ نسمة، بيد أن عدد هوسا في نفس الصفحة يبلغ... ٥١١٤٠٠. أيهما إذا أكبر حجما؟^{١١}

إن مقياس التناقض من المقاييس الأكاديمية التي يسبر أساتذة جامعات نيجيريا غور عقول الكتاب والشعراء حوله، وكانوا يعيرون على كتاب بلادهم وغير بلادهم أن يتناقضوا في أعمالهم الفنية، ويبحثون بالدقة عن المخالفة التي يجدونها في العملين الاثنين، ومن ذلك موقف الأستاذ عبد القادر الثاني عند تقويمه للقوائد التراثية لدى علماء غسو، يقول:

من عيوب مراثيهم: التناقض في معانيهم كما ورد في مراثية محمد الماحي أمين التي رثي بها صديقه محمد الناصر المتوفى سنة ١٩٩٦م:

لو دريتم ما جفاني ** من الدموع والسقام
أه لولا إله يكفي ** بكينا والسلام

فالشاعر في البيت الأول يشير إلى أنه بكي المرثي بكاء شديدا حتى مرض، ونجده في البيت الثاني يتأوه، ويقول: لو لم يكن هذا التأوه يكفي لبكى. وهذا تناقض في المعنى، ولو أن الشاعر اكتفى ببيت واحد من هذين البيتين، لكان المعنى مستقيما وواضحا.¹²

وقد نبغ في هذه البلاد عدد كبير من العلماء الذين يعتنون بالبحث عن التناقض عند المناظرات والمناقشات، منهم الشيخ علي الكماشي الكنوي، والشيخ محمد إبراهيم ميماس الإلوري، والشيخ أحمد الرفاعي بابادن، والشيخ عبد الله يوسف بلوكوجا وغيرهم من الشبان والأكاديميين الكثيرين.

المبحث الثالث: الصدق والكذب

اختلف الباحثون حول موضوع الصدق والكذب في النقد الأدبي، وقد وازن بعضهم الأدب كله بمقياس الصدق، وضربوا مثلا بشعر حسان بن ثابت:

وإن أشعر بيت أنت قائله ** بيت يقال إذا أنشدته صدقا¹³
بينما يري البعض، أنه لا بأس بالكذب، وأن الأدب لا يقاس بالصدق وحده وأتوا بالنموذج من قول البحترى:

كلفتمونا حدود منطقكم ** والشعر يعني عن صدقه كذبه¹⁴
وبهذا يتجلى لنا جليا أن للنقاد اتجاهين مختلفين في مقياس الصدق والفن، الاتجاه الأول يؤثر الصدق في الفن الأدبي، والآخر الذي لا يبالي بالكذب فيه.

ولكن عدم اتفاق البلاغيين حول تفسير الصدق والكذب، مما أدى إلى هذه الاختلافات، ولقد اختلفوا فيما بينهم هل الصدق مطابقة الكلام للواقع، والكذب عدم المطابقة، أو أن الصدق مطابقته لاعتقاد المخبر صوابا كان أو خطأ، والكذب عدم مطابقته لهذا الاعتقاد؟ أو أن الصدق مطابقته للواقع والاعتقاد معا، والكذب عدم مطابقته لهما، وأن هناك من الكلام ما ليس بصادق ولا كاذب.¹⁵

ولهذا تحيرت عقول الباحثين، وتزلزلت أركان البحث والتنقيب مع أنهم يعترفون بمكانة سيدنا عمر بن الخطاب في النقد، ويقولون بأنه يقيس الشعر والأدب بمقياس الصدق، إذ بذلك فضل زهيرا وأعلن من فضائله أنه لا يمدح الرجل إلا بما فيه، وعند ما استمع إلى شعر الحطيئة في قوله: متى تأته تعشو إلى ضوء ناره ** تجد خير نار عندها خير موقد

وقال: كذب، بل تلك نار موسى نبي الله عليه الصلاة والسلام.¹⁶

ومع هذه التقديرات كلها نرى معظم النقاد ما زالوا يبحثون عن معني كلمة "الواقع" لأن الصدق في رأي الجمهور هو مطابقة الكلام للواقع، والكذب هو فقدان هذه المطابقة¹⁷، ولهذا أخذ بعض النقاد يسلطون أضواءهم على معني كلمة "الواقع" ويشيرون إلى أنواعها والمستعملة منها والمهملة، فمنهم الدكتور أحمد بدوي الذي قال:

لنا أن نتوسع في تفسير "الواقع فنجعلُه "الواقع الخارجي" والواقع النفسي، فيكون الشعر صادقا إذا اتفقت أحكامه مع الواقع "الواقع الخارجي" إذا كان للكلام واقع خارجي، ومع الواقع النفسي العاطفي والشعوري، إذا تحدث الشاعر عن عاطفته وشعوره، إزاء ما يراه ويتحدث عنه. أم مطابقة الشعر للواقع النفسي فمما لا يختلف فيه نقاد العرب، إذ يرون الشعر الذي لا يتحدث عن العاطفة الصحيحة الإنسانية مردودا على صاحبه¹⁸.

ومن هنا نلاحظ أن النقاد لا يلزمون الشعراء بأن يققوا عند الواقع ولا يتعدوه، بل يبيحون لهم بأن يأتوا بالكذب الفني الذي يحتوي عليه بالكثرة فن المدح، والهجاء، والفخر، وهذا الكذب لا ينزل شيئا من قيمة الأدب، ولا يخالف الصدق الذي اعتمد عليه سيدنا عمر بن الخطاب في مقياسه للشعر. ولقد أفاض في شرح نوعية هذا الكذب كل من عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة، وأبي هلال العسكري في الصناعتين، وقدامة بن جعفر في نقد الشعر، والدكتور عبد الرحمن شعيب في النقد الأدبي الحديث، والدكتور أحمد بدوي في أسس النقد الأدبي عند العرب، والدكتور غنيمي هلال في النقد الأدبي الحديث، والدكتور مصطفى طه أبو ترشية في أصول النقد الأدبي وأمثاله.

وبرغم ذلك فإنهم لا يبيحون الكذب الذي يقلب حقائق التاريخ أو يغير حقائق الوجود، ويصور العواطف تصويرا غير إنساني، كالذي جاء من شعر المثقف العبدى يتحدث عن ناقته، وقد أتعبها السفر والرحلة:

تقول إذا درت وضيئي * * أ هذا دينه أبدا وديني

أكل الدهر حل وارتحال * * أما يبقي على ولا يقيني¹⁹

وذلك لأن مثل هذا الحديث لا يمكن أن يجري على لسان الناقاة، وفضلوا عليه قول عنتره، حيث يتحدث عن جواد:

مازلت أرميهم بثغرة نحره * * ولبانه حتى تسربل بالدم

فازور من وقع القنا بلبابه ** وشكا إليّ بعبرة وتجمحم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكي ** ولكان لو علم الكلام مكلمي²⁰.
وذلك لأن عنتره لم يجعل جواده متكلما، ولا شاكيا بعبارة كعبارة
الإنسان، ولا محاروا له يسأل ويجيب، ولكنه قال: لو كان الجواد
يعرف الحوار لحاوره، ولو كان يعلم الكلام لكلمه

ومهما يكن من الأمر فنقاد اللغة العربية في نيجيريا كإخوانهم في البلاد
العربية لهم عقيدة يؤمنون بها، واتجاه يميلون إليه، وعزم ينضالون في
تحقيقه. ولقد اهتموا إلى نظرية الصدق والكذب، وخاصة بعد
الاستقلال، حيث استطاعوا أن يتطلعوا على الكتب الأدبية وغير
الأدبية الواردة من البلاد العربية، وطبقوا آرائهم النقدية المختلفة على
مؤلفات بلادهم وغيرها، وأول من اشتهر بتطبيق هذه النظرية في
نيجيريا هو البروفيسور علي نائبي سويد في كتابه "كيف نتذوق الأدب
العربي" حاول البروفيسور في هذا الكتاب إرجاع الأدباء إلى نظرية
الصدق وقال:

الذي دفعني إلى هذا الكلام هو: ما شاع لدي كثيرين من نقاد القدامى،
وما يظل أثره من قرائنا ومعلمينا ودارسينا حتى اليوم من: أن الأدب
والشعر خاصة يجوز فيه الكذب، فللشاعر أن يدعي عاطفة لم يشعر
بها، وأن يعلن عقائد لم يؤمن بها، وأن يصف أشياء لم يشاهدها، وأن
يعرض لتجارب لم يمر بها، هذا في نظرهم جائز له، فلا يؤخذ عليه
بل يكفي أن يعرف عنه أنه شاعر حتى يباح له أن ينطلق كما شاء في
أودية الكذب، يكررون الجملة المشهورة. أنت شاعر فقل ما شئت.²¹

وكان البروفيسور يقف مضادا لقولة النقاد الشائعة: "أعذب الشعر
أكذبه" ويرى قول ابن رشيق القيرواني "أن الكذب الذي اجتمع على
قبحه حسن فيه" مما لا يعتبر به في الفن الأدبي، وقد أعلن ذلك بكل
شجاعة أدبية قائلا:

إننا نتخذ موقفا مضادا، تمام الضدية للوقف الذي ذكره: ابن رشيق، فإذا
عفونا عن الكذب في أي شيء آخر، إذا عفونا عن الكذب في معاملاتنا
اليومية، فإننا لن نعفو عنه في الأدب.²²

واستمر يقول:

الصدق الذي نتطلبه هو: أن يصدق الأديب في التعبير عن عاطفته التي اعتقدها، ولسنا نعني به أن يكون نقلا حرفيا للواقع الخارجي بحذافيره.²³

ويدعم البروفيسور موقفه هذا بمثال آخر قائلا:

إذا مدح شاعر أميرا، فوصفه بالشجاعة أو الكرم، فإننا يكون سؤالنا الأول: هل أكان هذا الأمير شجاعا أو كريما حقا؟ بل يكون سؤالنا الأول: هل اعتقد الشاعر اعتقادا مخلصا بأن هذا الأمير يتصف بتلك الفضيلة؟ وهل أثارت فيه فعلا ما يدعيه من الإعجاب؟ فإن صور اعتقاده المخلص، فإننا نقبله قبولا مبدئيا في دائرة الأدب، وإن كان لم يعتد في هذا حقا، فإننا نرفض قصيدته منذ البداية، ونأبي أن نعددها من الأدب الصادق إطلاقا.²⁴

والذي ينعم النظر في آراء البروفيسور يجد أنه جاد فيها لا يزلزله شيء عنها حيث يرمي المعيار الذي قال: "أعذب الشعر أكذبه" عرض الحائط ويتخذ موقف القائلين أعذب الشعر أصدق، ودفاعا لهذا الموقف نراه يقول:

إذا كذبنا في الأدب، فإننا نشوه من فهمنا لكياننا الإنساني كله ونزيف صورتنا عن حياتنا الإنسانية الشاملة، فنخلف لأنفسنا ونعطي لأولادنا وأحفادنا صورة خاطئة وزائفة عن تجارب الإنسان الأساسية في هذا الكون.²⁵

وعند ما يحاول البروفيسور علي نائبي سويد تطبيق هذه النظرية جعل التراث العربي النيجيري في عين اعتبار، وضرب به نموذجا كما ضرب بالتراث العربي الخالص مثلا، وذلك لتنمك من معرفة القيمة الفنية لإسهامات علماء هذه البلاد في اللغة العربية وآدابها، وفيما يأتي حكمه النقدي التطبيقي لديوان تزيين الورقات للشيخ عبد الله بن فودي، قال:

أزعم بأن جميع قصائد تزيين الورقات في أعلى درجة من القيمة الفنية، لأنها تصور الظروف والمناسبات التي قيلت فيها كل قصيدة تصويرا صادقا، وأن معاني هذه القصائد بحذافيرها صادقة ومطابقة لهذه الظروف والمناسبات، ولعقيدة الشيخ علي السواء، لا ادعاء فيها ولا مغالاة، بل إن معاني بعض هذه القصائد قد يقوي فيها الصدق،

فترتفع بأحكام صياغتها إلى مرتبة الحكمة والمثل، كما نلمس ذلك في بيت من أبيات قصيدته الحائية التي حث فيها قبيلته على تلبية دعوة الشيخ عثمان بن فودي إذ يقول:

وإن قد أضعناه أفاد بغيرنا ** مصائب قوم عند قوم مصالح

وفي بيت من أبيات قصيدته الجيمية المشهورة:

ولكل فرعون طغى موسى سطى ** وقضية غاضت عليا تنفع^{٢٦}

ومما يبدو لي أن البروفيسور علي نائبي سويد يعتبر ديوان تزيين الورقات كجزء لا يتجزأ من حياة صاحبه وحياة معاصريه من أعلام الجهاد وأصحابه سوي أن الذي فاجأنا في الأمر هو أن الأستاذ عمر سعيد لا يرى ما يراه البروفيسور بل يخالفه في عنصرية الصدق التي يتسم بها الديوان وقال:

إن كثيرا من قراء تزيين الورقات يصدرون حكمهم على شعر عبد الله من حال قراءتهم لقصائده الأولى في الكتاب، وأول ما يخطر ببالي وأنا ألقت النظر إلى هذه الحقيقة هو أن قصائده في التخميس، والتعريب، وتسجيل السند، والرد على مصطفى قوتي، ثم بعض قصائده في المدح والثناء، هذه القصائد الأولى تفتقر إلى شيء أساسي في الشعر، وهو صدق التجربة الشعرية فيها، فهو في قصائد التخميس، والتعريب، وإقامة السند، وبعض مدائحه ليس إلا مجاريا للعصر الذي عاش فيه، وكثرت فيه هذه النماذج الفقيرة التي ينعدم فيها الشعر وروحه، حتى في قصيدته الجيمية في مدح الشيخ جبريل، فنحن لا نراه فيها إلا مجاريا لروح عصره الذي كثرت فيها مدائح الشيوخ أصالة، لقد كان يكن لشيوخه احتراما شديدا وتقديرا كاملا، ولكن صدق التجربة عنده والانفعال الحقيقي يتضاءل أمام مجاراته الواضحة لروح عصره.^{٢٧}

والواقع أن الموقف السلبي من الأستاذ عمر سعيد تجاه عنصرية الصدق الفني لديوان تزيين الورقات مما أثار النقاش الحار بين الأدباء الأكاديميين محاولين تأييدا للبروفيسور علي نائبي سويد، وتعريضا للأستاذ عمر سعيد إن صح هذا القول، ومن أبرزهم البروفيسور عبد الباقي شعيب أغاكا الذي سلط ضوءا على الجوانب الفنية الموجودة في

الديوان مستشهدا بالأمثلة المتوفرة الجميلة، ليبرهن لنا بأن قصائد الديوان تنسم بسمة الصدق الفني، وقال:

ومهما يكن عبد الله مجاريا على روح العصر، فإن شخصيته بارزة، يطابق قوله عقيدته، وهو ثقافة مجتمعه وعصره ما دامت المواقف واضحة والتجارب صادقة.^{٢٨}

إن موقف البروفيسور عبد الباقي أغاكا كان على صلاح وسداد يثير تقدير الأدباء وإعجاب النقاد، لأنه يحتوي على النقد الإيجابي المنير، ومع موافقتنا لهذا الموقف فلا نستطيع أن نقرّ بأنه ليس جميع ثنايا ديوان الشيخ عبد الله يتضمن ألوانا من الصدق الذي لم يرفضه النقاد، بل عليهم أن يقبلوه لأن كثرة ما فيه تنتمي إلى الصدق الفني.

ومن الذين جذبوا أطراف المناقشة حول نظرية الصدق الفني وتطبيقاتها البروفيسور ولي الله سمبو جنيد الذي أشار إلى الصدق الفني في مرثية قاضي الوزير عبد القادر مألنوراج للوزير محمد البخاري والمرثية منها:

ماذا يروك يا أخي من دار ** كلا وما فيها سوي الأكار

ما هذه الدنيا بدار إقامة ** كلا وما فيها سوي الأكار

إن الرزية لا رزية مثلها ** في الدين والدنيا كفقد بخاري^{٢٩}

وفي أثناء الكلام عن الصدق الفني الذي يوجد في هذه القصيدة أخذ البروفيسور سمبو جنيد يقول:

وضع قاضي الوزير ترجمة لصاحبه حين توفي، وهذه الترجمة مع أنها عبارة عن صفحتين من الحجم المتوسط، إلا أن ما ذكره فيها يشير إلى طول مصاحبه إياه، وفي هذه المصاحبة يقول قاضي الوزير "وقد صاحبه أكثر من ثلاثين عاما" وأنه توفي وله من السنين ثلاث وستون.

ثم في الختام رثاه بأبيات قائلا:

عزيز نفسي وأولي الإسلام ** من فقده والدين للأوام

وما أقول ثم ما أقول ** من عدم المرشد في الموام

وأنت يا أخي ما تقول ** مما عرى من شدة الظلام

لكن توكلنا على الرحمن ** رحمته تعم الأنام

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن كل ما يجيش في قلب قاضي الوزير تجاه والد صاحبه ما هو إلا تعبير صادق، فطول المعاشرة والمصاحبة تثبت أن ما ذكره الشاعر في رثاء الوزير محمد البخاري أمر يؤمن به ويعتقده.³⁰

يبدو أن حكم البروفيسور ولي الله سمبو جنيد على قصيدة قاضي الوزير مألنواج مكلل بالأدلة الوافرة، وبالأمثلة الثابتة ليثبت لنا أن القصيدة تتميز بعنصرية الصدق الفني التي يدعو إليها النقاد القدامى والمحدثون. وأما الناقد المنصف المبدع فهو الذي يقدر على تفريق أو تمييز بين عنصرية الصدق والكذب وبين ما يسميه النقاد بالمثالية والواقعية، وما يطلقون عليه اسم الإحالة ونحوه في النقد الأدبي.

المبحث الرابع: الوضوح والغموض:

يتكلم نقادنا كما تكلم النقاد العرب من قبل عن وضوح المعني أو غموضه في الشعر والنثر.

ومقياس الوضوح من أهم المقاييس النقدية التي بها يحتل الأدب والأديب مكانة عالية في نفوس الناس، وأما الغموض فهو داء ينخفض به الأديب إلى الحضيض، وقلما ينجو الأديب من هذا الداء، اللهم إلا إذا كان شديد الحذر من مخالفة قواعد النحو والصرف، ومن كثرة استعمال الطباق والجناس، والاستعارات البعيدة التي توقع المرء في حيرة ولهذا عاب النقاد على أبي تمام لأجل إسرافه في طلب الطباق، والتجنيس، والاستعارات...، حتى صار كثير مما أتى به من معاني لا يعرف، ولا يعلم غرضه فيها إلا مع الكد والفكر وطول التأمل، ومنه ما لا يعرف معناه إلا الظن والحدس³¹

وهذا من الأسباب التي تدفع معني الجملة إلى الغموض والتعقيد، ومنها أيضا تقديم ما استحق التأخير، وتأخير ما حقه التقديم، كالذي أشار إليه البروفيسور حامد الثاني عند تحليله الفني لكتاب: "الإسلام اليوم وغدا في نيجيريا للشيخ آدم"، وقال:

قدم ما حقه التأخير وأخر ما حقه التقديم، نراه في مقدم الفصل الأول يعرض علينا ما اقتبسه نصارى نيجيريا من مراسم الإسلام ومشاعره

قبل أن يناقش ما هية الإسلام في نطاق دعائمه الرئيسية، وكيفية تغلغله في نيجيريا بل انتشاره المذهل الذي أثار غيرة خصومه، وحملهم على التآمر عليه أو الاقتباس من روعته.³²

فتقديم ما حقه التأخير أو تأخير ما حقه التقديم مما يفصل بين المتلازمين، فلا يتضح المعنى للقارئ إلا بعد تعب ومشقة، وعلى هذا عابوا الأستاذ عبد الرحمن الزكوي على قوله:

- ١- إن التصوف بالإسلام موصول ** حقيقة إنه زهد وتبتل
- ٢- فلا انفكاك له عن ديننا أبدا ** مهما تقاومه من قوم أباطيل
- ٣- فإنه الشرح للإحسان حيث أتى ** من النبي حديث عنه منقول
- ٤- إن التصوف صابون وتزكية ** للقلب ثم لهذا الدين تجميل
- ٥- لكن عمدته علم ومعرفة ** إن التصوف دون العلم تضليل
- ٦- فإنه العلم قلب للتصوف بل ** من ادعاه على الجهلات معدول
- ٧- فبالتصوف كان الدين منتشرا ** حقا ولا قال في هذا ولا قيل
- ٨- وإها لمن جمع الاثنين كان له ** فوز عظيم من المولي وتفضيل
- ٩- ومن تصوف قد طابت معيشته ** دعاؤه لو دعا الرحمن مقبول
- ١- أقبل على الله واترك ما يفوت أخي ** طوبى لمن هو بالتسبيح مشغول.³³

قال الأستاذ عبد اللطيف أونيرتي إبراهيم:

يحسن أن يأتي بالبيت السابع بعد الرابع، وبالبيت التاسع بعد السابع مباشرة، فيكمل التصوف وأهميته للمسلمين قبل أن يأتي الحديث عن عمدته. فيكون الترتيب بعد البيت على ما يأتي:

إن التصوف صابون وتزكية ** للقلب ثم لهذا الدين تجميل
فبالتصوف كان الدين منتشرا ** حقا ولا قال في هذا ولا قيل
ومن تصوف قد طابت معيشته ** دعاؤه لو دعا الرحمن مقبول

لكن عمدته علم ومعرفة ** إن التصوف دون العلم تضليل³⁴

ومما يلاحظ القارئ أن لفظ التصوف مكرر أربع مرات في الأبيات المقومة، فقد كان تكرير اللفظ أو الكلمة على وجهين: حسن ومعيب. وقال النقاد إنه لا يصح للشاعر أن يكرر اسماً أو لفظاً إلا على جهة التشويق والاستعذاب إذا كان في تغزل أو نسب أو باب وعظ ونصيحة، كما نجد في الأبيات السابقة الذكر، أو على وجه التوجع إن كان رثاء وتأبيناً، كقول متمم بن نويرة:

وقالوا: أتبكي كل قبر رأيته ** لقبر ثوى بين للوي فالدكادك

فقلت لهم إن الأسى يبعث الأسى ** دعونى فهذا كله قبر مالك.³⁵

أما التكرار المعيب فهو كما قال المتنبي:

عظمت فلما لم تكلم مهابة ** تواضعت وهو العظم عظما عن العظم
أو كقول الشاعر:

فما للنوى جذ النوى قطع النوى ** كذاك النوى قطاعة لوصال

قيل إن الأصمعي لما سمع هذا البيت قال: "لو سلط الله تعالى على هذا البيت شاة، فأكلت هذا النوى كله"³⁶ ضرب نقادنا مثلاً للغموض ولإيهام بأبيات للشيخ عبد الله بن فودي، وقالوا فيها اقتباسات كثيرة من القرآن الكريم، وهي:

خذلتم جمع إسلام جهارا ** رضي منكم موالاة الأعداء

نسيتم ما قرأتم في الكتاب ** لذا أخطأتم سبل الرشاد

ألما يكفكم "إن يتفقوكم" س ** "ولا يألونكم في ذا المراد "

كذلك "لا تجد" لا يتخذ "لا" ** إلى "براء" فافهموا صوب السداد.³⁷

وأما الآيات المقتبسة منها فهي:

١- "إن يتفقوكم يكونوا لكم أعداء ويسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون" سورة الممتحنة الآية: ٢٠.

٢- "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خيالا ودوا ما عنتم" آل عمران الآية: ١١٨.

٣- "لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله" المجادلة الآية: ٢٢.

٤- "لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين" آل عمران الآية: ٢٨.

٥- "لا يسخر قوم من قوم عسي أن يكونوا خيرا منهم" الحجرات الآية: ١١.

٦- "إنا برأوا منكم ومما تعبدون من دون الله" الممتحنة الآية: ٤.

من المحال أن يصل القارئ إلى فهم هذه القصيدة إلا بعد تعب ومشقة، وإلا فمن يسمع بهذه الأبيات، فيعلم أن الشاعر يشير إلى تلكم الآيات الكريمة. والواقع أن هذا الغموض ناشئ من أن الشاعر ابن بيته وثقافته، فقد تعود بالألفاظ الجزلة والديباجة المزخرفة والمعاجم اللغوية المختلفة.

المبحث الخامس: الإحالة:

هو أن يأتي الشاعر بمعنى يستحيل وقوعه، كقول أبي نواس:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه * لتخافك النطق التي لم تخلق^{٣٨}

لأن النطف التي لم تخلق يستحيل عليها أن تخاف، وكقول عبد الرحمن بن عبيد الله القسي:

فإني إذا ما الموت حل بنفسها * يزال بنفسي قبل ذاك فأقبر^{٣٩}

مستحيل الوقوع قول عبيد الله، ولهذا قيل إنه من مقاييس صحة المعنى بعده عن الإحالة، ولقد أخذ النقاد قديما وحديثا على الشعراء في أبياتهم بالمستحيلات إذ أخذوا على أبي نواس والمتنبي ونحوهما في ذلك، كما عاب أصحاب مدرسة الديوان على شعر أحمد شوقي لأجل ما فيه من الإحالات والاهتمام بالأعراض دون الجواهر.

ويرى الدكتور عيسى ألبى أبو بكر أن عبد الله بن فودي من الشعراء الذين لا تدفعهم المبالغة إلى قول المستحيل، إلا في بيت واحد فقط نلمس الإحالة منه عند ما يصف البحر الذي خاضه المسلمون في جزيرة فاس، قال:

يا سائلا أخبارنا عن بحرهم ** خذ فصها واكتب على القرطاس
لما أتينا البحر طاع تفلقا ** بعصى المعونة طائع الأجناس⁴⁰

يزعم عبد الله في البيت الثاني أن لهم عصا يضربون بها البحر لينفلق إلى شقين ويعبره المسلمون بسلام وأمن، كما انفلق البحر لموسى عليه الصلاة والسلام، وقومه حينما أتبعهم فرعون بجنوده، كما في التنزيل العزيز: "فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كطود عظيم" الشعراء الآية: ٦٣.

٣- الخاتمة

نرى فيما سبق أن علمائنا النيجيريين قد بذلوا جهودهم في نقد الأفكار الأدبية، ونظروا كثيرا إلى شينين اثنين: الأول: وفرة الحقائق وصحتها ووضوحها، الثاني: قوة الأسلوب وتجميله للقراء من حيث شعور صحيح بما يقدررون ويؤمنون به، وكانت محاكات علماء هذه البلاد للنقاد العرب في اتجاهات مختلفة مما أدى نقدنا للأدب العربى النيجيرى وغيره إلى أن يتسم بسمة الإفادة والتأثير.

وقد يجد القارئ تفوق علماء هذه البلاد في الأدب والنقد، لأنهم انكبوا على تحصيل اللغة العربية وآدابها ووهبهم الله علما وفهما ، ولهذا ندعو نقادنا العرب إلى وضع معجم نقدى حديث يتفق عليه معظم النقاد العرب وغير العرب.

هوامش البحث

- ١- أحمد الشايب (الدكتور): أصول النقد الأدبى، ط ١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ١٤٤.
- ٢- أحمد أحمد بدوى: أسس النقد الأدبى، ط ٢، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، عام 2003، ص ٤١٨.
- ٣- المرجع نفسه، ص ٤١٩.
- ٤- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
- ٥- المرجع نفسه، ص ٤٢٠.
- ٦- أبو الفرج قدامة بن جعفر: نقد الشعر ط ٣، تحقيق كمال مصطفى، 1978 م مكتبة الخانجي، القاهرة ص ٢٠٧.

- 7- المرجع نفسه والصفحة نفسها
- 8- علي نائبي سويد (البروفيسور): تعليق لغوى على كلمة الأسقم الواردة فى الصلاة المعروفة بجوهرة الكمال، ط عام ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م، مطبعة زاوية أهل الفيضة التجانية، كانو نيجيريا، ص ٣.
- 9- المرجع نفسه، ص ١١.
- 10- المرجع نفسه، ص ٨.
- 11- ر.د. أبوبكر (البروفيسور): المرجع السابق، ص ٢٦.
- 12- عبد القادر ثانى: القيم الفنية لمراثى شعراء مدينة غسو من سنة ١٩٤٧م إلى سنة ١٩٩٧م، مجلة النهضة، مركز الدراسات الإسلامية، جامعة عثمان دن فوديو، صوكوتو، سبتمبر ٢٠٠١، سلسلة ٣، رقم ١-٢، ص ١٧٥.
- 13- أحمد أحمد بدوى: المرجع السابق، ص ٤٢٤.
- 14- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
- 15- المرجع نفسه، ص ٤٢٥.
- 16- المرجع نفسه، ص ٤٢٧.
- 17- المرجع نفسه، ص ٤٢٦.
- 18- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
- 19- المرجع نفسه، ص ٤٣٠.
- 20- المرجع نفسه، ص ٤٣١.
- 21- علي نائبي سويد (البروفيسور): كيف نتذوق الأدب العربى، ص ١٤.
- 22- المرجع نفسه، ص ١٥.
- 23- المرجع نفسه، ص ١٦.
- 24- المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
- 25- المرجع نفسه، ص ١٥.
- 26- علي نائبي سويد (البروفيسور): تزيين الورقات للشيخ عبد الله بن فودي، مخطوط، ص ١١.
- 27- عبد الباقي شعيب أغاكا: أساليب بلاغية فى ديوان الأستاذ عبد الله بن فودي، ط ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م، مركز المضيف لخدمات الكمبيوتر والطباعة والنشر، إلورن، ص ٣١٠.
- 28- المرجع نفسه، ص ٣١١.

- ٢٩- سمبو ولي جنيد (البروفيسور): قاضي الوزير عبد القادر مألنوراج، ومرثيته على الوزير محمد البخاري، مجلة دراسات عربية العدد الأول، رجب ١٤٢٢هـ أكتوبر ٢٠٠١م ص ١٨٠
- 30- المرجع نفسه، ص ١٧٧.
- ٣١- أحمد أحمد بدوي: المرجع السابق، ٤٤٥
- ٣٢- حامد الثاني (البروفيسور): عرض وتحليل لكتاب الإسلام اليوم وغدا في نيجيريا، ١٩٩١م، مخطوط، ص ٥..
- ٣٣- عبد اللطيف أونيريتي إبراهيم: الوصف في شعر عبد الرحمن الزكوي، دراسة تحليلية، مجلة أينغا، للدراسات العربية والإسلامية السلسلة الثانية، الرقم الأول، يونيو عام ٢٠٠٥م ص ٣٤
- ٣٤- المرجع نفسه، ص ٣٩.
- ٣٥- عبد الرحمن شعيب (الدكتور): النقد الأدبي الحديث، تاريخ طبع ومكانه غير مذكورين، ص ٢٠٢.
- ٣٦- المرجع نفسه، ص ٢٠٨.
- ٣٧- عيسى ألبى أبوبكر (الدكتور): دراسات في شعر الجهاد لدى عبدالله بن فوديو النيجيري، ط أ، مطبعة النهار، القاهرة، عام ٢٠٠٧، ص ١٥٦
- ٣٨- أحمد أحمد بدوي: المرجع السابق، ص ٤٣٢
- ٣٩- المرجع نفسه والصفحة نفسها.
- 40- عيسى ألبى أبوبكر (الدكتور): المرجع السابق، ص ١٥٠